زهرة العفة

يوجد في هذا العالم ميناء مشهور اسمه « تامر اليبتي ».

وفي هذا الميناء عاش تاجر ثري يدعى «دهاندانا »، وكان محروماً من الأبناء، وفي ذات يوم، إستدعى بعض الكهنة وطلب منهم أن يستخدموا نفوذهم لدى الآلهة لكي يرزقوه غلاماً. فأجابه الكهنة قائلين: «إن بغيتك هذه ليست عسيرة التحقيق، ففي وسع البرهميين أن يقوموا بأية معجزة، بواسطة تقديم ذبائح وقرابين معينة!».

وبالفعل تكللت جهود البرهمين بالتوفيق، فلم يلبث التاجر أن ولد له ابن أطلق عليه اسم «جوهاسينا». وبمرور السنين شب الابن وأصبح رجلاً، فقرر الأب أنه قد آن له أن يبحث لابنه عن زوجة تسدد السأم من حياته. ومن ثم أبحر مع ابنه إلى جزيرة (« أرشيبيلاجو »، لكي يبحث له عن زوجة هناك، إلا أنه تظاهر بأن التجارة كانت هدفه من هذه الرحلة!.

وفي جزيرة « ارشيبيلاجو »، طلب من شهبندر التجار «دهارماجوبتا» يد ابنته التي كان اسمها «ديفاسميتا » –ومعناه «التي إبتسمت لها الآلهة! »– لابنه « جوهاسينا».

بيد أن التاجر الكبير لم يوافق على هذا الطلب، إذ كان يحب ابنته حباً عارماً، ولا يطيق الإبتعاد عنها، لاسيما وأن الذي يطلب يدها بقيم في ميناء « تامر اليبتي »، الذي يقع على بعد أميال عديدة!.

لكن الابنة الفاتنة لم تكن من رأي أبيها، فما أن وقع بصرها على « جوهاسينا » حتى راق في عينيها، وخلت مزاياه وسجاياه لبها، فقررت أن تتزوج من هذا الشاب، ضاربة عرض الحائط معارضة أبيها. ولم تلبث أن دبرت –عن طريق إحدى صديقاتها– لقاء مع محبوبها، لحق الاثنان – على أثره– بسفينة غادرت الميناء تحت جنح الظلام، حتى إذا وصلا إلى « تامر اليبتي » عقد زفافهما!.

وبعد عامين، مات أبو « جوهاسينا »، فورث هذا تجارته، وقرر أن يديرها بنفسه، ثم فكر في أن يقوم برحلة تجارية إلى جزيرة « سيام ». بيد أن « ديفاسميتا » لم تحبذ هذه الفكرة، إذ كانت شديدة الغيرة على زوجها، ومن ثم خشيت أن يقع في غرام إمرأة غيرها، وإحتار «جوهاسينا» بين مصلحته المادية ورغبة زوجته في بقائه إلى جوارها. وأخيراً إتفقا على أن يذهب الزوج إلى المعبد حيث يصوم عن الطعام، ويداوم على الإبتهال إلى إله المعبد أن يهديه إلى الطريق السوي!.. أما الزوجة فقد ظلت في المنزل، تصلي إلى الإله، طالبة ما يطلبه زوجها!.

وظهر الإله «سيفا » في الحلم لكليهما، وأعطاهما زهرتي « لوتس » حمراوين، ثم خاطبهما قائلًا: « يجب أن يحتفظ كل منكما بزهرة في

يده. فإذا إرتكب أحد كما جريمة الزنا وهو بعيد عن الآخر، ذبلت الزهرة التي في يد الآخر!».

وإستيقظ كلاهما، فإذا كل منهما يشاهد في يد الآخر زهرة «لوتس» حمراء تشبه قلب محبوبه!

***

وحمل «جوهاسينا» الزهرة، تم لحق بسفينته، بينما ظلت الزوجة في منزلها لا تكل من النظر إلى زهرتها، لكي تتحقق من أن زوجها لا زال أمينًا على عهدها. ووصل «جوهاسينا» إلى جزيرة «سيام»، حيث باشر أعماله في المتاجرة بالأحجار الكريمة. وقد أثارت الزهرة التي لم تكن تفارق يده فضول أربعة شبان أشقاء –هم أبناء تاجر من عملائه –حين رأوا أن الذبول لم يتطرق إليها أبداً. وبرغم إلحاحهم وتوسلاتهم، رفض الشاب أن يبوح لهم بسر الزهرة!

لكن أصدقاءه الماكرين لم يعلموا الحيلة، فاستدرجوه –ذات ليلة –إلى منزل أحدهم، ثم سقوه قدرًا كبيرًا من الخمر، حتى إذا ما لعب الشراب برأسه باح لهم بالسر. وإذ كانوا يعرفون أن تجارة الشاب في الأحجار الكريمة ستستغرق منه شهوراً طويلة، قرروا الإبحار إلى ميناء «تامراليبتي» –دون أن يخبروا أحداً بذلك –لكي يحاولوا التغلب على عفة زوجة «جوهاسينا»!

فلما وصلوا إلى هناك سعوا إلى مقابلة عجوز من اللاتي يعملن – في الظاهر –تاجرات متجولات بين البيوت، وإن كانت حقيقة مهنتهن هي التوفيق بين رؤوس الشبان المراهقين والزوجات اللاتي تلهي أعمال أزواجهن قلوبهم عنهن! واستقبلتهم العجوز بترحيب حار وأكرمت وفادتهم، ثم سألتهم عن بغيتهم، فأجابوها قائلين: «أيتها الأم المبجلة !.. إذا نجحت في تحقيق طلبنا، سنكافئك مكافأة مجزية!» ..

ولم تكن العجوز اللئيمة في حاجة إلى ذكاء كبير لتدرك طبيعة طلبهم، فقالت: «أغلب الظن أنكم تريدون مني أن أدبر لكم موعداً مع إحدى حسان المدينة. أخبروني من هي، ولن تعوزني الحيلة في إحضارها إليكم. ولست أنشد منكم –مقابل ذلك –مالاً ولا ذهباً، فقد منحتني الآلهة تلميذة نجيبة اسمها «سيدهيكارى» أغنتني شر الفاقة والعوز، وقد جمعت بفضلها ثروة طائلة! ».

فسألها أبناء التاجر قائلين: «هل لك في أن تسردي علينا كيف استطعت جمع هذه الثروة عن طريق تلميذتك؟»، فأجابت العجوز: «إذا كنتم حقاً مشتاقين إلى سماع هذه القصة، فلا أجد مانعًا من أن أقصها عليكم. أنصتوا:

* * *

«وفد إلى بلدنا من الشمال –منذ سنوات عديدة –تاجر ثري، كان ينفق بسخاء وبذخ، مما جعله ملتقى أبصار جميع غانيات المدينة، غير

أنهن فشلن جميعًا في لفت نظره. بيد أن تلميذتي «سيدهيكارى» تمكنت من ولوج عتبة داره، إذ التحقت بخدمته كوصيفة، حتى إذا اكتسبت ثقته، سرقت كل كمية الذهب التي يحتفظ بها في منزله، ثم تسللت هاربة عند الفجر. إلا أن طبالاً لمحها وهي تغادر المدينة، فاشتبه في أمرها، إذ كانت تسير بخطوات متعجلة تنم عن لهفتها إلى مغادرة المدينة، فسار في أعقابها وقد اعتزم أن يسرقها بدوره. وكانت «سيدهيكارى» قد وصلت إلى شجرة «بانيان»، كثيفة الأغصان، حين لمحت الطبال يسير خلفها، فأدركت على الفور النية التي كان يضمرها لها. بيد أن سرعة بديهتها وأتتها، فنادته في صوت ينبض لوعة وأسى، قائلة: «لقد تشاجرت مع زوجي، فهربت لكي انتحر. فهل لك – يا صديقي –أن تصنع لي من هذا الحبل عقدة ألفها حول عنقي!».

«فحدث الطبال نفسه قائلاً: «إذا كانت هذه المرأة تزمع الانتحار، فلماذا أقتلها بدي إذن؟».. ولم يلبث أن ربط الحبل في الشجرة، وصنع فيه عقدة، ثم صعد فوق طبلته ووضع رأسه داخل الحلقة وهو يقول لها: «هذه هي الطريقة!». وعلى الفور، ركلت «سيدهيكارى» بقدمها الطبلة فأطاحت بها بعيداً. وإذا الحلقة تلتف حول عنقه فتزهق روحه!

و«كان التاجر –الذي جردته «سيدهيكارى» من كل ثروته –قد خرج مع عدد من خدمه ليطاردوها. فما أن أقترب من الشجرة حتى لمح الغانية تقف بجوار جثة تتأرجح في الهواء، بيد أنها شاهدته بدورها، فتسلقت الشجرة واختبأت بين أغصانها، وما لبثت أن اختفت عن

الأنظار. فتساءل التاجر قائلاً: «أتراها قد تسلقت الشجرة؟»، ثم أمر أحد خدمه بالصعود خلفها، فلما وصل الخادم إلى أعلى الشجرة همست «سيدهيكارى» اللعوب في أذنه قائلة: «لقد همت بك غراماً من أول نظرة يا حبيبي، وها قد اجتمع شملنا في أعلى شجرة. هاك المال الذي سرقته، وأنا نفسي ملك يمينك، فخذني!»، ثم ألقت بذراعيها حوله، وألصقت شفتيها بشفتيه، وفجأة أطبقت بأسنانها على لسانه، فراح الفتى يتلوى من شدة الألم ثم بصق دماً!

ورفع التاجر عينيه إلى أعلى، على صوت تأوهات خادمه فشاهد جسده يتلوى ذات اليمين وذات اليسار، فخيل إليه أن شيطاناً قد سكن جسده. فدب الذعر في نفسه، وأطلق ساقيه للريح يتبعه باقي الخدم، حتى إذا ما تأكدت تلميذتي أن الجو قد خلا لها، هبطت من الشجرة ثم عادت إلى منزلي حاملة غنيمتها! ».

* * *

وما كادت العجوز تفرغ من سرد قصتها، حتى دخلت التلميذة التي كان الحديث يدور عنها، فعرفتها العجوز بضيوفها. وبعد قليل سألتهم العجوز: «أخبروني من هي المرأة التي تبتغونها، وأنا كفيلة بأن أدبر لكم موعداً معها!»، فأجابوها قائلين: إنها «ديفاسميتا» وزوجة «جوهاسيتا». أحضريها إلى فراشنا وسنجزل لك العطاء!». فوعدتهم العجوز خيرًا ثم أعدت لهم أمكنة للرقاد في منزلها.

ومنذ اليوم التالي وبدأت في تنفيذ الخطة التي رسمتها لإيقاع الزوجة الوفية في حبائلها، فوثقت علاقتها بخدم منزلها، مغدقة عليهم الهدايا والحلوى .. ومن ثم لم تجد مشقة في اجتياز أبواب قصرها .. وسارت على أطراف أصابعها ميممة شطر جناح «ديفاسميتا» وأمام بابه شاهدت كلبة تربض إلى جواره وقد قيدت فيه بسلسلة حديدية. وكانت تلك الكلبة معروفة بالجبن والوداعة، فلم يسمع عنها أحد يوماً أنها نبحت عند اقتراب غريب من القصر. بيد أنها ما وقع بصرها على العجوز حتى راحت تنبح بصوت مرتفع، ثم هجمت عليها، وكادت تمزقها إربًا، لولا أن السلسلة حالت بينها وبين الوصول إليها!

وبلغ نباح الكلبة مسامع «ديفاسميتا»، فخرجت لتستطلع الأمر، حتى إذا لمحت العجوز، أرسلت إحدى وصيفاتها لتعرف من هي، ولم تلبث الوصيفة أن عادت ومعها الزائرة، فدعتها الزوجة إلى دخول مخدعها.. وهنالك قالت العجوز «لديفاسميتا»: «لقد كنت دائمًا متشوقة لزيارتك، لكن الظروف كانت دائماً تحول دون ذلك. واليوم شاهدتك في الحلم، فصممت على المجيء!.. لقد سمعت أن زوجك قد هجرك وسافر بعيداً، ومن ثم فإن قلبي ينفطر شفقة وأسى عليك. ذلك لأن الشاب والجمال يغدوان بلا ثمرة إذا حرما من ملذات الهوى والغرام! ».

وهكذا راحت تتملقها وتتزلف إليها حتى تمكنت من اكتساب ثقة هذه الزوجة الشريفة، فقضت معها –في ذلك اليوم –عدة ساعات

تثرثران معاً في شتى الشئون التي تهم النساء! وفي اليوم التالي، عادت ومعها قطعة من اللحم وقد نثرت فوقها مسحوقاً يهيج خياشيم الأنف ويستدر الدموع من العيون! وما بلغت الباب حتى ألقمت الكلبة قطعة اللحم. وعلى الفور، أخذت الكلبة تعطس بشدة وتتقاطر الدموع من عينيها بلا انقطاع. ثم دخلت العجوز مخدع «ديفاسميتا» وهي تبكي بحرقة. فلما استفسرت منها هذه من سبب بكائها أجابتها قائلة: «أواه يا ابنتي. أخرجي لتشاهدي كلبتك. إنها تبكي. لقد تعرفت في شخصي على إحدى صديقاتها في حياتها السابقة، فلم تستطع أن تكبح دموعها من الانهمار. أما أنا فقد كنت أعرف مأساتها، فلم ألبث أن انخرطت في البكاء بدوري!».

وأطلت «ديفاسميتا» من الباب وشاهدت الكلبة، فقالت لنفسها متسائلة: «أية معجزة هذه؟ حقًا إنها تبكي!». وقالت لها العجوز الشمطاء: «لقد كنا –أنا وهي –ضرتين، في حياتنا السابقة، فقد كنا متزوجتين من رجل برهمي، اضطرته مهام وظيفته كمبعوث خاص للملك لأن يكثر الترحال، وفي كل مرة كان يغيب فيها عنا، كنت ألتمس السلوى عن فراقه بالانطلاق على هواي، متنقلة من أحضان رجل إلى آخر!.. ذلك لأن أعظم واجب علينا –نحن النساء –أن نروي غرائزنا وأحاسيسنا! وقد كوفئت على قيامي بهذا الواجب على أكمل وجه بأن بعثت إلى الحياة –مرة أخرى –متمتعة بالمقدرة على تذكر كل أحداث حياتي السابقة!.. أما هي فقد أهملت في أداء هذا الواجب، وحافظت –

عن جهل –على عفتها، ومن ثم جاءت إلى الدنيا على هيئة كلبة، إلا أنها ظلت أيضًا محتفظة بقدرتها على تذكر وقائع الماضي!».

وعندئذ قالت «ديفاسميتا» لنفسها: «أي واجب مقدس هذا الذي تتحدث عنه المرأة؟ أغلب الظن أنها أتت وهي تضمر لي نية خبيثة، فلأكن منها على حذر!»، ثم التفتت إلى الزائرة وقالت لها: «أيتها الأم المبجلة! لقد عشت حياتي حتى الآن على شاكلتها –جاهلة بهذا الواجب المقدس. ومن ثم يجب أن تعرفيني برجل وسيم!».. فأجابتها الشمطاء قائلة: «إن أربعة شبان –أبناء تاجر من جزيرة «ارشيبيلاجو» – يقيمون الآن في منزلي. وليس لدي مانع من تقديمهم إليك!». ثم عادت إلى منزلها حاملة لأبناء التجار بشرى نجاح مسعاها!

أما ديفاسميتا» فقد نادت خادمتها ثم قالت لها: «إنني واثقة من أن أبناء التاجر هؤلاء قد شاهدوا الزهرة النضيرة في يد زوجي، فانتابهم الفضول لمعرفة سرها، ومن ثم أغروه بالإفراط في الشراب، حتى تمكنوا من انتزاع القصة منه والآن، قد جاء أولئك الأفاقون إلى بلدتنا بقصد إغوائي، فاستأجروا هذه المرأة الداعرة كوسيطة. هيا أحضري لي قارورة من الخمر الممزوجة بمخدر «الداتورة»، ثم إصنعي لي قالباً على شكل مخلب كلب!».. فنفذت الخادمة ذلك، ثم إرتدت ثوباً من ثياب سيدتها، حسب تعليماتها!.

وفي تلك الأثناء كان الشبان الأربعة يتنافسون فيمن يكون الأول في الفوز بالحسناء الفاتنة، فإختارت القوادة واحداً منهم بطريق القرعة، وصحبته إلى منزل «ديفاسميتا» حيث تركته أمام باب القصر. وإستقبلته الخادمة المتنكرة على هيئة سيدتها بما يليق به من إجلال وإكبار، ثم سقته كأس الشراب الممزوج «بالداتورة»، فلم يلبث أن سقط فاقد الوعي. وعلى الفور جدته الخادمة من ثيابه حتى غدا لا يرتدي سوى الهواء، ثم دمفت جبينه بخاتم مخلب الكلب!.

وفي النصف الأخير من الليل عاد الشاب إلى وعيه، فإذا هو ملقي على قارعة الطريق عارياً!.. وسار في طريقه بخطوات متعثرة، مبينما صوب منزل القوادة، وهو يتحسس جبينه الدموغ من لحظة لأخرى، وهناك أدعى أن كل شي قد تم على ما يرام، بيد أنه أفرط في الشراب، فإنتهز بعض اللصوص الفرصة، فسلبوه نقوده، وجردوه من ملابسه في الطريق عند عودته. أما الوشم الواضح على جبهته فلم يجد وسيلة لإخفائه أفضل من أحكام لف عمامته فوقه!.

وفي مساء اليوم التالي لاقي ثانى الشبان نفس المصير، وعاد بدوره عارياً وهو يردد نفس قصة زميله، وإدعى كذلك أن صداعاً قد أصابه ومن ثم أحكم لف عمامته. ولم تلبث الرحى أن دارت على باقيهم فلم يبق واحد منهم بشير وشم على جبينه!.

وإذ حسبت الحيزبون أن خطتها قد نجحت، إتجهت إلى منزل «ديفاسميتا» لتطالبها بأجرها عن الخدمة الجليلة التي أدتها لها، إذ قدمت لها هؤلاء الشبان الفاتنين!.. فإستقبلتها الزوجة العفيفة إستقبالاً حاراً، ثم قدمت لها كأساً من الخمر ممزوجة بالداتورة. فلما إستيقظت من غيبوبتها وجدت نفسها ملقاة في إحدى البرك وقد قطع أنفها وأذناها!.

ايبد أن هاجساً إنتاب «ديفاسميتا»، فقالت لنفسها: «أليس من الجائز أن يغتال أولئك الشبان زوجى، إنتقاما لما لحق بهم من خزي وعار؟»، فلم تجد بداً من الذهاب إلي أم زوجها وأنهت إليها القصة بحذافيرها. فقالت لها حماتها: «لقد تصرفت تصرفاً سليماً يا ابنتي.. بيد أن حياة ابني قد باتت معرضة للخطر!»، فأجابتها الزوجة المخلصة بقولها: «لا تخشي شيئاً يا أماه!.. فسأنقذه كما أنقذت «ساكتيسماتا» زوجها، بسرعة بديهتها!»، فسألتها الحماة: وكيف أنقذت «ساكتيماتا» زوجها يااابنتى؟.. أخبريني!».

وبدأت «ديفاسسميتا» تسرد قصتها قائلة:

«يقيم في بلدنا إله عظيم يدعي «مانيبهادرا»، وقد شيد له سكان المدينة معبداً فخماً، يترددون عليه فيه ليقدموا نذورهم وعطاياهم، طالبين منه أن يحقق لهم أمانيهم. وقد جرت العادة أن يساق أي رجل، يضبط في ساحة المعبد مع زوجة رجل آخر، إلى السجن. وفي ذات ليلة ضبط

تاجر اسمه «سامودرانا» متلبساً بإرتكاب جريمة الزنا مع زوجة رجل آخر في ساحة العبد، فإقتاد الحرس الرجل والمرأة إلى قدس أقداس المعبد حيث ألقوا بهما مصفدين بالأغلال: إنتظاراً لمحاكمتهما في صباح اليوم التالي.

وما ليت النبأ أن وصل إلى مسامع «ساكتيماتي» زوجة ا التاجر الوفية، فصممت على إنقاذه بأية وسيلة. وقد عمدت إلى التنكر ثم إتجهت إلى المعبد حيث قدمت للكاهن هدايا ثمينة، ففتح لها أبواب الزنزانة التي حبس فيها زوجها مع عشيقته. وهناك جطت عشيقة زوجها ترتدي ثوبها، وهكذا سمح لها الكاهن بالخروج حاسباً إياها الزائرة، بينما ظلت الزوجة مع زوجها. وفي الصباح، فوجيء الحراس الذين أتوا لإصطحاب التاجر للمحكمة، بأن المرأة التي معه ليست سوى زوجته الشرعية، فلما علم الملك بالقصة أمر بإطلاق سراح التاجر وزوجته، وهكذا خلصت المرأة زوجها من الموت التي كان يفتر فاه لإبتلاعه.

* * *

وأنهت «ديفاسميتا» قصتها قائلة: « كما إلتجأت «ساكتيماتي» إلى الحيلة لإنقاذ زوجها، كذلك سأفعل أنا»، ومن ثم تنكرت في زي الرجال، وأبحرت مع بعض وصيفاتها –وهن متنكرات مثلها– إلى جزيرة «سيام». فما أن بلغت سفينتهن الشاطيء حتى شاهدت «ديفاسميتا» زوجها متألقاً وسط لفيف من التجار. وأبصرها زوجها –بدوره– من بعيد،

فوقف فترة طويلة يلتهم بنظراته جمال زوجته الباهر، الذي بدا متألقاً بالرغم من زي الرجال الذي كانت ترتديه.

لكن «ديفاسميتا» كبحت الرشية التي إضطرمت داخل صدرها في أن تلقي بنفسها بين ذراعيه، وتظاهرت بعدم معرفته، ثم إتجهت إلى قصر ملك الجزيرة، طالبة منه أن يجمع كل سكان الجزيرة أمام القصر. فإستجاب الملك لرغبتها، والفضول يعتمل في جوانحه لمعرفة سر هذا الطلب الغريب. ثم قالت له «ديفاسميتا»: «في وسط هذا الجمع يوجد أربعة عبيد فروا من خدمتي. فأرجو من جلالتكم أن تسلبوهم إلي!»، فأجابها الملك: «إن كل الشعب مجتمع هاهنا أمامك. فإذا كان عبيدك من بينهم، لك أن تأخذهم». وعندئذ أشارت إلى الشبان الأربعة الذين كانوا لا يزالون يحملون الوصمة التي دمغت بها جباههم.

غير أن الملك إعترض قائلاً: لكن هؤلاء أبناء تاجر معروف، فكيف تدعي يا هذا أنهم عبيدك؟»، فأجابته قائلة: «إذا كنت لا تصدقني، إفحص جباههم، وستجد مخلب الكلب منقوشاً عليها بوضوح!».. فلم يجد أبناء التاجر مفراً من فك عمائمهمز وكادوا يموتون من فرط الخزى والخجل، حين شاهد الجميع الوشم على جباهم. فسأل الملك «ديفاسهمتا» قائلاً: «أي سر يكمن خلف هذا؟»، ولم تجد الزوجة الفاضلة مانعاً من سرد القصة كلها. وعندئذ قال الملك: «إنهم عبيدك حقاً!»، ثم أمر التاجر الكبير بأن يدفع الزوجة فدية باهظة مقابل إطلاق سراح أبنائه. فعادت «ديفاسميتا» مع زوجها –حاملة الفدية التي تقاضتها– إلى ميناء «تامر اليبتي»، حيث عاشا في أتم سعادة وهناء. ومنذ ذلك اليوم، لم يقترق العاشقان يوماً واحداً!!.